سعيد بن المسيب

(٦٣٧-٧١٥م=١٣-٩٤هـ)

صلابة الحق وقوة الحجة

obeikandl.com

العالم المسلم العامل بمبادئ دينه، والعارف برسالة العلماء لا يبالي في الحق أميرا ولا ملكا ولا صاحب سلطان مادام على الحق. وإذا دعا إلى الخير بدأ بنفسه. هكذا كان «سعيد بن المسيب».

عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته، وغاية حياته، كان من أوسع التابعين علما وأعرفهم بالحلال والحرام، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا. بقى أربعين سنة لا يسمع الآذان إلا وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.

كان سعيد في هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده. رفض عطاء السلطان، فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفا، فلم يأخذ منها درهما، وكان له ٤٠٠ درهم يتاجر بها فى الزيت ويعيش منها، فلم يكن يريد يوما أن يتكل على راتب يأخذه من الحاكم، فما ذل العلماء إلا يوم اتكلوا على الرواتب.

ظل «ابن المسيب» صلبا في الحق طوال حياته، ضُرب وحُبس وأُوذي في جسده وماله، ولم يتحول أبدا عن الحق. كانت حياته التي امتدت من عام ١٣ إلى عام ٩٤هـ بالمدينة تجسيدا للعزة والإباء والكرامة، وهي من أبرز الخصال التي يتحلى بها العلماء الصادقون ، لأنهم يستمدون عزتهم من مصدرها الحقيقي، وهو الله تبارك وتعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[فاطر، الآية: ١٠].

الامتثال للشرع:

في يوم من الأيام وسعيد يجلس في لمسجد النبوي بالمدينة ومن حوله طلاب العلم، وقف على رأسه أحد رجالات الحكم من بني أمية -وهمس في أذنيه: إنني أريد محادثتك في أمر هام، وأنا رسول الخليفة «عبد الملك بن مروان» إليك، ولقد جئتك بعز الدنيا والآخرة.

فقال له سعيد: انتظر حتى أنتهى من الدرس.

وما كاد سعيد ينتهي من الدرس حتى جاءه الرسول قائلا: يا سعيد.. ألم أقل أني جئتك بعز الدنيا والآخرة..؟؟.

قال سعيد: أما الدنيا فأنا في طاعة الله، وذلك هو العز الذي لا عز بعده. وأما الآخرة، فهي في علم الغيب، ولا يدري العبد أهو إلى الجنة أم النار.؟

قال الرسول: إن الخليفة رغب في مصاهرتك، فأرسلني لأخطب ابنتك لابن الخليفة والذي جده خليفة، وسيكون هو الخليفة بعد أبيه. فإن وافقت كيلنا لك الذهب والفضة وآتتك الدنيا راغمة، وفُرشَت لك الأرض من دمشق إلي المدينة بما تحب وترضى.

وإن كانت الثانية،فأنت أعلم الناس بسياط بني أمية..؟؟

طلب سعيد أن يستشير ابنته امتثالا للشرع الحنيف، بعدها جلس سعيد مع نفسه، إن ابنته قطعة منه، ومحال أن تكون لابن الخليفة،الذي بغى وطغى وآثر الدنيا على الآخرة، ومن يفعل ذلك لا شك أن يكون طعمة للنار يوم القيامة.

وهو أرأف بابنته أن تكون حطبا لجهنم، مهما تحمل في سبيل ذلك من عذاب. إن بني أمية يهددونه بالسياط وبما هو أنكى من السياط، ولكن سياطهم لم يعد لها تأثير على جسده الفاني لأنه باع دنياهم.

انتظر أمير المؤمنين أن يهش سعيد ويبش، ويطير فرحا بهذه النعمة، لكن موازين الناس غير ميزان سعيد، ميزانه ميزان الشرع، الناس يفتشون عن المال والجاه، ولكن سعيدا يفتش لابنته عن السعادة الزوجية. عن الخلق والدين، عن الطهر ،والفضيلة. وماذا تفيده دنيا الوليد، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟

رجل صالح:

إن الرجل المتدين الحسن الخلق الفقير، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين، لأن هذا يكون لها وحدها، وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري.

لقد قرر سعيد ألا تكون ابنته زوجة لابن أمير المؤمنين. وليبحث لها عن رجل صالح، صاحب خلق ودين. ومرت أيام، وكان له تلميذ اسمه «كثير بن أبي وداعة متين الدين»، رضي الخلق، انقطع عن الدرس، ثم جاء فسأله فقال: مرضت زوجتي فمرضتها وعنيت بها، ثم توفيت فدفنتها.

فقال سعيد: هل تزوجت غيرها؟

قال: ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم، من يزوجني يا شيخي وأنا لا أملك حمراء ولا صفراء من هذه الدنيا؟!

قال سعيد: سؤال محدد ألك رغبة في الزواج؟.

قال الطالب: وهل يمكن أن يعيش الرجل بغير زوجة،إلا إذا اضطرته ظروف الحياة وحال بينه وبين ما أمر الله تعالى به بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم، آية: ٢١].

ذهب سعيد إلى بيته، والتقى بابنته التي حباها الله أخلاق المؤمنات العابدات، وقال لها: يا ابنتي لقد اخترت لك زوجا صالحا تقيا عارفا بحدود الله، متأدبا في عشرة النساء بما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النساء ناقصات عقل ودين، يغلبن كريما ولا يغلبهن إلا لئيم»، فأحببت أن أكون كريما مغلوبا، على أن أكون لئيما غالبا. فهل تقبلينه زوجا؟. قالت الفتاة: ما تراه خيرا يا والدي فهو خير ، ذهب سعيد ومعه ابنته إلى بيت «ابن أبي وداعة»، وقال له: هذه يا بني زوجك، أخرج على سطح منزلك وألق ببعض الحصيات على بيوت الجيران،حتى يعلموا أنك ستعرس في هذه الليلة.

وهكذا زوج «ابن المسيب» ابنته العالمة المحدثة زوج لا يملك سوى أربعة دراهم، رافضا أن يزوجها من ابن الخليفة الذي لا يخاف الله تعالى. ولم يرهب سعيد الخليفة ولم يفكر في الانتقام والغضب الذي يمكن أن ينزله به.

فتوى المبايعة:

كان سعيد يفتي بأن الرسول ﷺ نهى عن بيعتين، فلما أراد عبدالملك بن مروان،

أن يبايع لولديه: الوليد وسليمان من بعده، فدعا الناس إلى البيعة، فبايع الناس.

ودعا «سعيد بن المسيب» أن يبايع فأبى لم ينس سعيد فتواه ولم يتناسها، ولم يجد لنفسه مخلصا بفتوى جديدة. ولم يقل: إني واحد من الناس، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم، ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول: إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين. ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة.

وبذل له أمير المدينة «هشام بن إسماعيل» كل أنواع الترغيب والترهيب فأبى، فهدده بالجلد علنا، وتوسط العلماء حتى يلين موقف سعيد،وعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم. قال: «أنا أسكت على الحق؟. لا». وكانوا يعلمون أنه إذا قال لا فليس في الأرض قوة تجعله يقول نعم.

قالوا: فاعتزل في بيتك أياما حتى تمر العاصفة، قال: «أبقىَ في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة، وأنا أسمع: حي على الصلاة، حي على الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟. لا».

قالوا: فيدل مكانك من المسجد، حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه، فقال له لم أجده، قال: «أخوفا من مخلوق؟ لا. لا أتقدم عن مكاني شبرا ولا أتأخر شبرا».

ودعاه الأمير فهدده بالقتل، فلم يرجع عن فتواه وقالها أمامه مؤكدا: «نهي رسول الله ﷺ عن بيعتين»، يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس، وكأن السيف ليس على عنقه. لا يسكت خوفا من السيف، ولا يكتم العلم، ولا يبدل الحكم.

فأمر الأمير بأن يُساق سعيد إلى ساحة العقوبات، وجرده من ثيابه إلا تبانا قصيرا -غطاء يواري سوءاته-، وضُرب خمسين سياطا، ثم أُخذ إلى الحبس.

هذا العالم الجليل لم ترهبه السياط ولم تجعله يبدل موقفه، بل لم تنهه عن إفادة الناس بعلمه. فقد أقبل عليه قتادة العالم المشهور، وهو يُضرب، فقال: إني أخاف أن يموت، ويذهب علمه، وإني أحب أن أسأله عن مسائل، فتركوه يسأله، وراح سعيد

يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره.

وهو في سجنه، صنعت له ابنته طعاما كثيرا، وجاءت به. فقال لها: «هذا ما يريده هشام «الأمير»، أن أفتقر ويذهب مالي، فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدوني بها، ولا أدري إلى متي يمتد سجني، فانظري ما كنت آكله كل يوم في بيتي فأتيني به، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك».

ولما بلغ الخليفة ما حدث مع سعيد عزل أمير المدينة. فقال سعيد لأولاده وأهله: إياكم والتعرض لهشام بعد عزله، أو الشماتة به لما ناله. إني أدعه حتى يحكم الله بيننا(*).

التمسك بالحق:

موقف آخر يبين قيمة العالم ومكانته عندما يكون واثقا من علمه، متمسكا بالحق. لا يشتريه أحد غير ربه، حج «عبدالملك بن مروان»، فلما قدم المدينة، وقف على باب المسجد، وأرسل إلى «سعيد بن المسيب» رجلا يدعوه، قال له: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك.

قال سعيد: ما لأمير المؤمنين إليَّ حاجة، وما لي إليه حاجة، وإن حاجته إليَّ لغير مقضية..!

عاد الرجل إلى عبدالملك وأخبره، فقال له: ارجع إليه فقل: إنما أريد أن أكلمك. فرجع الرسول إلى سعيد وقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد ما قال له أولا. فقال الرجل: يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذه المقالة؟ فرد عليه قائلا: «إن كان أمير المؤمنين يريد لي خيرا فهو لك، وإن كان يريد لي غير ذلك، فلا أقوم من مقامي هذا حتى يقضي الله ما هو قاض».

**) د. عبد الرحمن عميرة، «مواقف العلماء أمام الحكام والولاة»، دار العلم والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٤٢.

فقيه أهل المدينة:

بعد وفاة «عبدالملك بن مروان» تولي الأمر ابنه الوليد - الذي رفض سعيد أن يزوجه ابنته من قبل. جاء الوليد إلى المدينة فدخل المسجد، فرأى شيخا قد اجتمع الناس عليه.

فقال: من هذا؟

فقالوا: «سعيد بن المسيب».

فلما جلس الوليد في المسجد، أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال سعيد: لعلك أخطأت باسمي، أو لعله أرسلك إلى غيري.

قال الرجل: إنما يعنيك أنت!

فغضب سعيد وهم به. وقال له اذهب وقل له: ليس لي حاجة عنده وماله حاجة عندي.

هذا القول أغضب الخليفة، ولكن جلساؤه قالوا له: يا أمير المؤمنين إنه فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه. ومازالوا به حتى ابتعد عنه.

ورغم ما ناله من أذى من وراء هؤلاء القوم، فإنه كان إذا سئل عنهم يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر، آية: ١٠].

هذا الرجل القوي مع الحكام كان لينا حانيا مع طلاب العلم، وكان من أكثر الناس تأدبا مع حديث الرسول ﷺ:

جاءه رجل، وكان سعيد مريضا، فسأله عن حديث فجلس وحدثه. فقال

الرجل: وددت أنك لم تتعن.. أي لم تتعب نفسك وأنت مريض لا تقوى على الحركة.

فقال: كرهت أن أحدثك عن رسول الله وأنا مضطجع.

وكان سعيد يقول عن الدنيا: «هي قبيحة، وتكون إلى كل قبيح أميل، وأقبح منها من أخذها من غير حقها، ووضعها في غير موضعها من شرع الله».

رحم الله هذا العالم الذي تربى في مدرسة القرآن، والذي ما تحول يوما عن قول كلمة الحق. وليت علماء اليوم يتعلمون منه فما أحوجنا إلى أمثاله هذه الأيام.

openkandl.com